

التحرير والتنوير

و (من) في قوله تعالى (فمن ا) ابتدائية أي واصله إليكم من ا أي من عطاء ا لأن النعمة لا تصدر عن ذات ا ولكن عن صفة قدرته أو عن صفة فعله عند مثبتتي صفات الأفعال . ولما كان (ما بكم من نعمة) مفيدا للعموم كان الإخبار عنه بأنه من عند ا مغنيا عن الإتيان بصيغة قصر .

الغالب شأنها هو كما الرتبي للتراخي (الضر مسكم إذا ثم) تعالى قوله في (ثم) و A E في عطفها الجمل لأن اللجأ إلى ا عند حصول الضر أعجب إخبارا من الإخبار بأن النعم كلها من ا ومضمون الجملة المعطوفة أبعد في النظر من مضمون المعطوف عليها .

والمقصود : تقرير أن ا تعالى هو مدبر أسباب ما بهم من خير وشر وأنه لا إله يخلق إلا هو وإنهم لا يلتجئون إلا إليه إذا أصابهم ضر وهو ضد النعمة .

ومس الضر : حلولة . استعير المس للحصول الخفيف للإشارة إلى ضيق صبر الإنسان بحيث إنه يجأر إلى ا للحصول أدنى شيء من الضر له . وتقدم استعمال المس في الإصابة الخفيفة في قوله تعالى (وإن يمسسك ا بضر فلا كاشف له إلا هو) في سورة الأنعام .

و (تجأرون) تصرخون بالتضرع . والمصدر : الجؤار بصيغة أسماء الأصوات .

وأتبع هذه بنعمة أخرى وهي نعمة كاشف الضر عن الناس بقوله تعالى (ثم إذا كشف الضر عنكم) الآية .

و (ثم) للترتيب الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل . وحيء بحرف (ثم) لأن مضمون الجملة المعطوفة أبعد في النظر من مضمون المعطوف عليها فإن الإعراض عن المنعم بكشف الضر وإشراك غيره به في العبادة أعجب حالا وأبعد حصولا من اللجأ إليه عند الشدة .

والمقصود تسجيل كفران المشركين وإطهار رأفة ا بالخلق بكشف الضر عنهم عند التجائم إليه مع علمه بان من أولئك من يشرك به ويستمر على شركه بعد كشف الضر عنه .

و (إذا) الأولى مضمنة معنى الشرط وهي ظرف . و (إذا) الثانية فجائية . والإتيان بحرف المفاجأة للدلالة على إسراع هذا الفريق بالرجوع إلى الشرك وأنه لا يتريث إلى أن يبعد العهد بنعمة كشف الضر عنه بحيث يفجأون بالكفر دفعة دون أن يترقبه منهم مترقب فكان الفريق المعني في قوله تعالى (إذا فريق منكم) فريق المشركين .

(ليكفؤوا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون [55]) لام التعليل متعلقة بفعل (يشركون) الذي هو من جواب قوله تعالى (إذا كشف الضر عنكم) . والكفر هنا كفر النعمة ولذلك علق به قوله تعالى (بما آتيناهم) أي من النعم . وكفر النعمة ليس هو الباعث على

الإشراك فإن إشراكهم سابق على ذلك وقد استصحبوه عقب كشف الضر عنهم ولكن شبهت مقارنة عودهم إلى الشرك بعد كشف الضر عنهم بمقارنة العلة الباعثة على عمل لذلك العمل . ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النعمة دون تريث .

فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل وهي استعارة تبعية تمليلية تهكمية ومثلها كثير الوقوع في القرآن . وقد سمى كثير من النحاة هذه اللام لام العاقبة ومثالها عندهم قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وقد بينها في مواضع آخرها عند قوله تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) في هذه السورة .

وضمير (ليكفروا) عائد إلى (فريق) باعتبار دلالة على جمع من الناس . والإيتاء : الإعتاء . وهو مستعار للإنعام بالحالة النافعة لأن شأن الإعتاء أن يكون تمكينا بالمأخوذ المحبوب .

وعبر بالموصول (بما آتيناهم) لما تؤذن به الصلة من كونه نعمة تفضيلاً لكفرانهم بها لأن كفران النعمة قبيح عند جميع العقلاء .

وفرع عليه مخاطبتهم بأمرهم بالتمتع أمر إهمال وقلة اكتراث بهم وهو في معنى التخلية . والتمتع : الانتفاع بالمتاع . والمتاع الشيء الذي ينتفع به انتفاعاً محبوباً ويسر به . ويقال : تمتع بكذا واستمتع . وتقدم المتاع في بخر سورة براءة .

والخطاب للفريق الذين يشركون بربهم على طريقة الالتفات . والأظهر أنه مقول لقول محذوف . لأنه جاء مفرعاً على كلام خوطب به الناس كلهم كما تقدم فيكون المفرع من تمام ما تفرع عليه . وذلك يناه في الالتفات الذي يقتضي أن يكون مرجع الضمير إلى مرجع ما قبله .

والمعنى : فتقول تمتعوا بالنعم التي أنتم فيها إلى أمد